

## المحاضرة رقم 02

### **المطلب الثاني: التطور التاريخي للدبلوماسية في العصور الوسطى**

#### **أولاً: الدبلوماسية عند العرب والمسلمين**

مارس العرب مظاهر الدبلوماسية منذ أيام الجاهلية، وذلك بحكم الظروف والمعطيات البيئية المختلفة التي دفعت بهم إلى التفاعل في علاقات تعاون سلمية سواء على المستوى الداخلي أي بين القبائل العربية في تفاعلها مع بعضها البعض، أو على المستوى الخارجي مع الشعوب المجاورة، حيث دفعت بهم إلى السفر وممارسة التجارة (رحلة الشتاء والصيف) مع الأقاليم والشعوب الأخرى وإقامة علاقات وارتباطات معها.

وإذا كانت الدبلوماسية أيام الجاهلية قد ركزت على تنظيم التجارة وحل المشاكل القبلية البدائية، فإن ظهور الدين الإسلامي خلق اهتمامات جديدة سياسية واجتماعية ودينية. فقد وحد العرب في دولة عربية إسلامية أصبحت لها مكانتها ونفوذها في العالم المعروف آنذاك.

وفي علاقاتهم مع الدول غير الإسلامية اعتمد المسلمون وسيلتين أساسيتين هما الجهاد والعلاقات السلمية أو الدبلوماسية، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده يرسلون الرسل إلى الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الدخول إلى الدين الحنيف، أو لتبادل الأسرى وإنهاء القتال. أما علاقتهم بالدول الإسلامية ذهب المسلمون إلى تقسيم العالم إلى قسمين أساسيين: القسم الأول عرفوه باسم " دار الإسلام " وهي البلاد التي تظهر فيها شعائر الإسلام وتطبق فيها أحكامه، والقسم الآخر وهو " دار الحرب «وهي البلاد التي لم يغلب الإسلام على أهلها ولم تقم فيها أحكامه.

وأقر الإسلام القاعدة التي كرسها القانون الدولي المعاصر، وهي قاعدة الحصانة أو الحرمة الشخصية للسفير. حيث كانت فئة من السفراء الأجانب تتحمل على الحكام المسلمين وتنتطق بعبارات مسيئة أمامهم، فلا يلحق بها الأذى، في حين أن السفراء والمبعوثين المسلمين إلى الدول غير الإسلامية كانوا، بشكل عام، يلقون أسوأ المعاملات. وكان للعرب فضل كبير في إضافة قاعدة جديدة إلى التعامل الدبلوماسي عندما أقروا بمسؤولية الدولة عن كل خطأ يرتكبه المبعوث الدبلوماسي في الخارج.

#### **ثانياً: الدبلوماسية عند البيزنطيين**

كانت الدبلوماسية البيزنطية أكثر مهارة في استخدام الدبلوماسية وممارستها. اتبع البيزنطيون أسلوب من التفاوض في استخدام الدبلوماسية في علاقاتهم مع الأمم الأخرى بدهاء تام. بعد ان وجدوا أباطرة بيزنطة أن فض الخلافات بحد السيف وحده لا يكفي. ابتكروا ثلاثة أساليب رئيسية هي:

- 1- سياسة أضعاف للشعوب والقبائل البرابرة من خلال نشر التفرقة وإثارة التنافس بينهم وإيقاع الخصومات وذلك بهدف تقوية وحدتهم الداخلية.
- 2- شراء صداقة الشعوب والقبائل المجاورة بطريق الرشوة والهدايا، أي التملق والمساعدات المالية.

3- ادخال أكبر عدد ممكن في الديانة المسيحية كما حصل مع العرب في جنوب الجزيرة أيام دولة الحميريين اليهودية، حيث قامت أول سفارة مسيحية في العصر الحميري في عدن سنة 65 م وقد تم كل ذلك كان بمساعدة أبرهة نائب ملك الحبشة. لقد استخدم البيزنطيون عنصر التحري، وجميع المعلومات المتعلقة بأسرار الدولة التي يبعث اليها البيزنطيون بمبعوث حيث يجب عليه ان يتعرف على مواطن الضعف فيها واطماع حاكميها وكيفية استغلال كل ذلك لصالح دولته البيزنطية عن طريق المراقبة وجمع المعلومات.

تميزت الممارسة والأسلوب الدبلوماسي عند البيزنطيين بخصائص وسمات أهمها:

1- اعتمد البيزنطيون على فن المفاوضات وممارسة الدبلوماسية بأشكال وصيغ معينة. واعتمدوا أسلوب الدبلوماسي المراقب بدل الدبلوماسي الخطيب وهذا الأسلوب يستند الى شخصية الدبلوماسي المحترف ذي الخبرة والدراية. ويقول "نيكلسون" ان البيزنطيين في تقاليدهم الدبلوماسية سبقوا غرب أوروبا بخمسة قرون على أساس المساواة في السيادة وقواعد حسن الجوار، وتبين أشكال العلاقات الدبلوماسية لتصبح وسيلة تحقيق التضامن بين الأسر الأوروبية.

2- أنشأ البيزنطيون في القسطنطينية ديواناً خاصاً للشؤون الخارجية قام بتدريب المفاوضين المحترفين الذين يقومون بأعمال السفارة لدى الدول الأجنبية وأنشأ الى جانب ذلك ديوان الأجانب او حسب تعبيرهم (ديوان البرابرة) وهو يختص بمصالح المبعوثين الأجانب وشؤونهم وكان من تعليمات ديوان الشؤون الخارجية لسفراء بيزنطة ان يراعوا قواعد الذوق واللياقة في بعثاتهم، ومعاملاتهم مع الاجانب والمجاملة في أحاديثهم وان لا ينتقدوا البلد الموفدين اليه في شيء بل عليهم امتداحه قدر المستطاع.

3- أهداف السفارات البيزنطية هو ان تقوم بإعداد تقارير عن الاوضاع الداخلية في البلاد الموفد اليها فكانوا يسكنون في مبان خاصة ويكرمونهم ويراقبونهم ويحيطونهم بحرس الشرف. 4- الاهتمام الزائد بالمراسم وإجراءات الضيافة وحسن الضيافة والاستقبال كما في روما ومن هذه المراسم احتفاظ البيزنطيين لسفراء العرب بمكان الصدارة بين جميع الدبلوماسيين الموفدين اليها، وهو احترام بيزنطة الكبير لسفارات بغداد والقاهرة وقرطبة وتفضل سفراء العرب المشرف قبل عرب المغرب، حتى اعتبر ان العرب المشرق وخاصة بغداد الأفضلية على سفراء قرطبة.

### المطلب الثالث: الدبلوماسية في العصر الحديث

تطور الدبلوماسية يتوقف على طبيعة العلاقات الدولية والقدرة على تسوية المنازعات الدولية بالوسائل الدبلوماسية وتجنب استخدام القوة العسكرية في العلاقات الدولية قد تطورت الدبلوماسية في العصر الحديث بمرحلتين أساسيتين:

#### أولاً: مرحلة الدبلوماسية التقليدية.

كانت الدبلوماسية في بداية هذه المرحلة تعتمد على إرسال الدبلوماسيين مؤقتين إلى الدول الأجنبية وشهدت كذلك تطور ملموساً في مجال إرساء التقاليد والأعراف وأصبحت دبلوماسية دائمة ومستقرة.

#### 1- الدبلوماسية المؤقتة

يرجع المؤرخون بداية هذه المرحلة الى الفترة بين 476 م إلى 1475 م. حيث ظهر أسلوب إرسال السفراء المؤقتين إلى الدول الأجنبية لتمثيل دولهم وإجراء المفاوضات لحل النزاعات. ومن الأسباب التي ساعدت على إرسال المبعوثين هو ضعف الإمبراطورية الرومانية وأقول نجمها العسكري.

وتميزت القواعد الدبلوماسية في هذه المرحلة بعدم الانتظام نظرا لسيطرة الإقطاع الذي أخذ ينظر إلى المبعوث الدبلوماسي نظرة شك وريبة. وفي أواخر هذه المرحلة عرفت القواعد الدبلوماسية تطورا ملحوظا وشرعت بعض القوانين لتحد من تصرفات الشنيعة بين الدبلوماسيين.

## 2: الدبلوماسية الدائمة:

بدأت هذه المرحلة من 1475 الى 1815، تطورت فيها القواعد الدبلوماسية واتجهت نحو التنظيم والاستقرار بسبب تطور العلاقات الدولية. حيث بدأت تظهر في إيطاليا جمهوريات مستقلة (مثل البندقية، ميلانو، نابولي والدولة البابوية) حين بدأت تتعامل تجاريا واقتصاديا مع الدول الأخرى وتقيم معها علاقات دائمة لرعاية تلك المصالح وحمايتها من قبل كل دولة لدى الأخرى.

وتطورت الدبلوماسية وازدهرت واستقرت كمهنة أو كسلك، حيث كانت جمهورية البندقية بشكل خاص، بين جمهوريات إيطاليا الأخرى، هي مدرسة ازدهار الدبلوماسية وتنظيمها، ويعود ذلك إلى زيادة الاتصال وتشابك المصالح بين إمارات ومدن إيطاليا الشمالية، ظهور البرجوازية التجارية وبدء عصر النهضة الصناعية والفكرية وتلاشي نظام الإقطاع وقيام نظام تأسيس العلاقات بين الجمهوريات على أساس المساواة في السيادة والاستقلال. وقد فاقت جمهورية البندقية في شهرتها غيرها من الدويلات الإيطالية بسفرائها الممتازين مثل " ميكافيلي " وذلك لما تمتعت به من قوة عسكرية واتساع مصالحها التجارية، مما هيأها لإتقان فن الدبلوماسية وأساليبها إلى حد كبير فأصبحت منبت الدبلوماسية الحديثة ومدرسة الدبلوماسيين حتى عصور متأخرة.

ومن فضائل البندقية على تطور الفن الدبلوماسي:

- أ- أنها أنشأت أول ديوان للمحفوظات بهدف جمع المعاهدات وتسجيلها.
  - ب- منذ بداية القرن 13 أصدرت جمهورية البندقية مجموعة من القوانين والمراسيم التي ضمنت القواعد التي يجب على كل سفير لها بالخارج أن يتبعها. وهي قوانين وأوامر تدل على مدى اهتمام البندقية للفن الدبلوماسي واعتمادها عليه في تنظيم علاقاتها الخارجية.
- ومن أبرز القواعد التي قررتها تلك الأنظمة:

1. أنه على الممثلين الدبلوماسيين في روما أن يبذلوا مساعيهم لدى الحكومة المحلية لتأمين مصالح رعاياهم.
2. منع أي سفير أو مبعوث من جمهورية البندقية أن يصطحب معه زوجته حتى لا تفسد أسرارها.
3. يجب على السفير أن يصحب معه طاهيه خوفا على حياته.
4. على الممثل الدبلوماسي أن يبعث بتقارير عن مباحثاته وأحوال البلد المبعوث إليه أولا بأول.
5. ليس للسفير الحق في حيازة أي ممتلكات في الدولة الموفد إليها.
6. ينبغي أن يكون المبعوث من المتدينين الدارسين للثقافات القديمة والجغرافيا والتاريخ. كذلك يجب أن يكون صاحب ذوق فني رفيع.

7. اهتموا كذلك بسرية مراسلاتهم مع السفراء. ولهذا استخدموا الشفرة الدبلوماسية. وبذلك استقرت الدبلوماسية كمهنة أو سلك، ما أفضى على العاملين بها صفات معينة وأصبح لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما تقتضيه طبيعة هذه المهنة. كذلك كان من وراء تطور القواعد الدبلوماسية احتدام التنافس الأوروبي للسيطرة على الدول الأخرى لاستيلاء على مواردها الأساسية من بينها فرنسا وبريطانيا، للسيطرة على الوطن العربي من المعاهدة المعقودة بين الدولة العثمانية وفرنسا عام 1535 م والتي حصلت بموجبها فرنسا على بعض الامتيازات في الأقاليم الخاضعة للدولة العثمانية.

أدت هذه العوامل الى رغبة الدول بالحد من خطر الحرب وكان لمعاهدة واستغيا الموقعة عام 1648 م دور ايجابي في إقرار التوازن الأوروبي والحد من خطر الحرب وظهرت الحاجة الى البعثات الدبلوماسية الدائمة.

### ثانياً: الدبلوماسية الحديثة.

شهدت هذه المرحلة خروج الدبلوماسية من طابعها المؤقت الى الطابع الدائم واستقرار التمثيل الدبلوماسي، وقد تميزت الدبلوماسية الحديثة بعدة مميزات نذكر منها:

#### **1: استقرار التمثيل الدبلوماسي**

مرحلة تبدأ من 1815 م (مؤتمر فيينا وبروتوكول اكس لاشابيل 1818 م) الى الحرب العالمية 1914 م) أبدى فيها الفقه الدولي اهتماما بدراسة أوضاع العلاقات الدبلوماسية، فظهرت مؤلفات قيمة عالجت هذا الموضوع، أشهرها كتب الفقيه "غروسيسوس". ومع بداية القرن 19 شهدت هذه الفترة ازدياد الاهتمام بالقواعد القانونية الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية، حيث تطورت خلالها المفاهيم الدبلوماسية تطورا سريعا نحو الاستقرار. وبدأ المبعوثون الدبلوماسيون يبتعدون عن التجسس واستخدموا المفاهيم السياسية من أجل توطيد العلاقات الدولية، وأدى تنافس الدول الكبرى على اقتسام العالم الى زيادة الاتصالات بين هذه الدول لتحديد مناطق النفوذ.

ويمكن تلخيص الخصائص الأساسية للدبلوماسية في هذه المراحل في:

- أ- وضوح قواعد القانون الدبلوماسي، وخصوصا ما كان منها متعلقا بالحصانات والمزايا الدبلوماسية.
- ب- قيام الدبلوماسي بتمثيل رئيس الدولة لا الدولة ذاتها، وذلك بسبب انتشار أنظمة الحكم المطلق وصعوبة التمييز بين الدولة والحاكم.
- ت- كثرة حالات تدخل الدبلوماسيين في الشؤون الداخلية للدول المضيفة وكثرت حالات التجسس والاشترار في مؤامرات قلب نظام الحكم.
- ث- شهد القرن 17 نشوء عادة اصطحاب السفراء لزوجاتهم بعد أن كان محرما عليهم.
- ج- نشأة مبدأ حصانة المسكن وعدم جواز التعرض لدار الوكالة الدبلوماسية.
- ح- أصبحت المدرسة الفرنسية منذ أوائل القرن 17 حتى الثورة، وتحديدًا على يد الكاردينال " ريشيليو"، هي المثل الأعلى لغيرها من البلاد التي قامت على تنظيم سلكها الدبلوماسي.
- خ- عرفت في تلك الفترة بما يسمى دبلوماسية المؤتمرات التي تتخذ شكل المقابلات التي كانت تتم بين الملوك والأمراء بهدف تبادل وجهات النظر حول القضايا المتعلقة أو المشكلات المعقدة. ظهرت في تلك الفترة اهتمام لافت بقواعد المراسيم في الاستقبالات والأسبقية في التقديم بين المبعوثين والسفراء في الاجتماعات والاحتفالات.

#### **2: الدبلوماسية العلنية.**

تبدأ هذه المرحلة من الحرب العالمية الأولى وتنتهي بانتهاء الاتحاد السوفياتي عام 1991. حيث أدى قيام الحرب العالمية الأولى إلى تدهور المفاهيم الدبلوماسية بصورة عامة نظراً لتدهور العلاقات الدولية. غير أن تلك المفاهيم ما لبثت أن استعادت تطورها بصورة سريعة لعزوف الدول الاستعمارية عن استخدام الحرب كوسيلة للسيطرة على الدول الأخرى وتحولها إلى المفاوضات لحل المنازعات الدولية.

وظهر الاتحاد السوفياتي كقوة عسكرية جديدة وأصبحت نداً للرأسمالية الغربية، وظهرت الدول النامية على الساحة الدولية نظراً لتحررها من السيطرة الاستعمارية. وكانت الدول الصناعية في حاجة إلى أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الواسعة والدول النامية في حاجة إلى تصريف المواد الأولية والحصول على البضائع والتكنولوجيا كل هذا تطلب إقامة علاقات دولية على أساس المصالح المشتركة وأدت هذه العوامل المجتمعة إلى خروج الدبلوماسية من عزلتها الأوروبية لتشمل أغلب دول العالم، وقد رافق هذا التطور زيادة في البعثات الدبلوماسية.

وعلى الرغم من التطور الكبير لقواعد الدبلوماسية إلا أن هذه الفترة عرفت حروباً كبيرة كالحرب الفيتنامية والكيان الصهيوني والحرب العامة الثانية الخ... كما عجزت الدبلوماسية على الحد من أثار استخدام القوة العسكرية. وقد تميزت هذه المرحلة ببعض الصفات منها:

أ- صفة العلنية. فقد بقيت الدبلوماسية تنصف بالسرية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى أين طالب الرئيس الأمريكي " ويلسون " في البند الأول من مبادئه الأربعة عشر في برنامجه للسلام الدولي الدائم بالأخذ بالدبلوماسية العلنية أي تحريم الاتفاقيات والمعاهدات السرية. وكان من نتيجة ذلك أن ألزم نص المادة 18 من ميثاق العصبة بضرورة تسجيل كل معاهدة أو التزام دولي قامت بعقدته أية دولة عضو بالعصبة في الأمانة العامة لعصبة الأمم. ومع قيام الأمم المتحدة انتقل نفس المبدأ إلى ميثاقها في المادة 102 من الميثاق. ومع ذلك ما زالت هناك دول تخالف هذا المبدأ وتلجأ إلى الاتفاقيات السرية. نذكر منها الاتفاق السري الذي أبرمته إسرائيل مع فرنسا وبريطانيا عام 1956 للعدوان على مصر.

ب- أهمية دور الرأي العام الداخلي والعالمي في مراقبة السياسة الخارجية للدول. وانعكس هذا الأمر على البعثات الدبلوماسية فراحته تهتم بالرأي العام الخارجي وتتصل بالصحافة وتضم مستشارين إعلاميين.

ت- تساؤل أهمية الوظيفة الدبلوماسية بسبب تقدم وسائل الاتصال والمواصلات. وقد نتج عنه سهول الاتصال مباشر بين أجهزة العلاقات الدولية في مختلف الدول.

ث- حصول تغيير في صميم الوظيفة الدبلوماسية. فالدبلوماسية التقليدية كانت تهتم بالشؤون السياسية فقط. أما الدبلوماسية الحديثة فتهتم كذلك بالشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد أدى ذلك إلى تضخم عدد أعضاء البعثات الدبلوماسية وظهور الوظيفة القنصلية لصالح الوظيفة الدبلوماسية.

ج- ظهور دبلوماسية المنظمات الدولية. فقد أثرت هذه المنظمات في الوظيفة الدبلوماسية من ناحية تحولها لمكان لمناقشة القضايا الدولية وممارسة الدبلوماسية، ومن ناحية أخرى تطويرها لقواعد القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية. فقد أصبح من حق المنظمات الدولية

مباشرة التمثيل الدبلوماسي وتمتع الممثلين والمبعوثين والعاملين بالحصانات والامتيازات الدبلوماسية.

### 3: مرحلة دبلوماسية هيمنة القطب الواحد

وتبدأ هذه المرحلة من انهيار الاتحاد ال سوفياتي 1991 حتى الوقت الحاضر. حيث ظهرت بوضوح الهيمنة الأمريكية على العالم ومحاولة فرض العولمة على العالم. وتميزت هذه المرحلة بالسميات التالية:

- ربط اقتصاديات الدول باقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية واستخدام صندوق النقد الدولي لإثارة الأزمات الدولية.
- شنت الولايات المتحدة الأمريكية عدة حروب (لتصفية حسابات قديمة) على العراق على نيكاراغوا، باناما، هايتي، ليبيا، السودان، الصومال وكوسوفو.
- لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحلول العسكرية بدل الدبلوماسية.
- استخدام الدول الأوروبية لتحقيق المصالح الأمريكية.
- اضمحلال دور الأمم المتحدة في تسوية المنازعات الدولية وأصبحت جميع مؤسساتها مسخرة لخدمة الولايات المتحدة الأمريكية وأفضت على العدوانية العسكرية غطاء الشرعية الدولية.
- انتهاك قواعد الدبلوماسية المعترف بها دولياً وهي حصانات رؤساء الدول مثل اعتقال رئيس باناما والزج به في السجون الأمريكية والاعتداء على الرئيس الليبي.